الحلفاية

من العراق إلى الأندلس

مدريد- د. كاظم شمهود طاهر

لا يوجد ركن أو زاوية واحدة من بلاد الأندلس إلا وله حكاية للتاريخ الذي أثرى هذه المنطقة وأغناها بالثقافة والعلوم والأدب والفن. وعند التجول في هذه الديار تطالعنا الأسماء العربية هنا وهناك مثل أسماء المدن والأنهار والقلاع والشوارع والجسور وغيرها حتى أسماء وألقاب بعض العوائل الأندلسية.

من المدن الأندلسية التي استوقفتني كثيراً هي مدينة صغيرة تقع شمال غرب مدريد على بعد حوالي 20 كم تدعى الحلفاية (الحلفاء) وقد نقلني هذا الاسم مباشرة إلى العراق وبالذات إلى الجنوب حيث هناك مدينة في محافظة العمارة تسمى الحلفاية وهناك رواية للأستاذ مالك المطلبي تسمى "الحلفاية". كل هذا جعلني أستحضر التاريخ والتفكير بذلك الإنسان العربي الذي نقل تراثه من المشرق إلى المغرب والتحكم برؤية حضارية في ثراء تلك البقعة التي أصبحت فيما بعد مناراً حضارياً لأوربا المظلمة يومذاك.

ولكن يا ترى كيف انتقلت هذه الأسماء إلى الغرب وما هي القواسم المشتركة بين هذه العناصر الثلاثة المذكورة سابقاً؟

ليس غريباً أن تنتقل أسماء المدن من بلد إلى آخر لأن تاريخ الأمم القديمة قد رصد لنا تلك الظاهرة الحضارية. فقد أسس الفينيقيون مدينة على سواحل أسبانيا الشرقية وسموها قرطاجنة على غرار اسم مدينة قرطاجنة القديمة في تونس. كما أسس الأسبان مدناً في أمريكا الوسطى والجنوبية وأطلقوا عليها أسماء المدن الأندلسية مثل قرطبة في الأرجنتين ووادي الحجارة في المكسيك وهكذا.

إن مدينة الحلفاية أو الحلفاء هي في البداية كانت قلعة عسكرية حصينة أسّسها العرب تقع ضمن الخط الدفاعي الممتد في المنطقة الوسطى من بلاد الأندلس. ويذكر ابن حزم بأن عبد الرحمن الثالث قام بحملات عسكرية ضد النصارى سنة 939م وقد اتجه نحو الحلفاية وحصنها وزودها بالمعدات اللازمة للدفاع والمراقبة. وفي سنة 1270م خلت هذه المدينة من سكانها وبدأت الهجرة إلى المناطق المجاورة لها لأسباب كثيرة منها، كما يذكر بعض المؤرخين، هو الضرائب الثقيلة التي فرضتها الكنيسة على الفلاحين والحرفيين والذي أدى إلى التفكير بالهجرة إلى مكان آخر أكثر أماناً وضماناً للعيش.

ولا زالت توجد بعض آثار هذه المدينة القديمة حيث تقع على مساحة مرتفعة بين واديين عميقين أحدهما يحدها من الشمال والآخر من الجنوب ونهر وادي الرمل من الشرق. ولا زالت تُرى صهاريج المياه وبعض الأحجار

قرية بيابيثيوسا دي ودون التي قامت في محل الحلفاية.

The modern day village of Villaviciosa de Odon which replaced Al- Halfaya

للسور القديم. وعند المرور على هذه الأرض والتأمل قليلاً، لم يصدق أحد أنها كانت في يوم من الأيام معقلاً إسلامياً وسوراً وأبراجاً وحركة اجتماعية ودوراً سكنية. واليوم تجد فيها منزلاً لأحد الفلاحين وقد حولها إلى أرض زراعية، كما يكثر فيها الصيد وتربية المواشي. وأيضاً منطقة عشب أخضر.

وتقع قلعة الحلفاء قرب نهر وادي الرمل وهو الاسم الذي لا زال يطلق على نهر يقع غرب مدريد ويصب في نهر التاجه. وتقع عليه أيضاً قلعتان هما: ولوش وقنالش. وتعتبر هذه القلاع الثلاث الخط الدفاعي الأول لحماية طليطلة.

وقلعة الحلفاية أو الحلفاء اليوم تسمى بيابيثيوسا دي ودون ولم يظهر اسمها في الخرائط الحديثة لمحافظة مدريد إلا في التخطيطات القديمة وهو ما يؤسف له.

وقد ذهبت لزيارتها وسألت بلدية المدينة الحديثة وكذلك الناس الساكنين فيها فلم يعرف أحد عنها إلا القليل. وقد قضيت ساعات في البحث عنها وأنا أعلم ومتأكد من وجودها في المنطقة حسب ما تذكره الكتب التاريخية وكذلك الخرائط الجغرافية. وأخيراً عثرت على أرض مسطحة زراعية فقيل لي هذه هي المدينة القديمة.

وتحتاج هذه المنطقة التاريخية إلى الاهتمام والتنقيب والدراسة وإظهارها إلى النور من قبل المسؤولين والمعنيين بالآثار الوطنية. وتحتاج أيضا إلى دليل ومرشد سياحي حتى يسهل الوصول إليها.

إن التجول وزيارة هذه المناطق الساحرة الجميلة والكتابة عنها هو بمثابة قطع الطريق على الذين يحاولون الالتفاف على التاريخ ولي ذراعه علّه ←

يحتمل وقائع جديدة ليست في التاريخ أصلاً. حيث نجد في الكثير من الكتب الغربية اتجاهاً واضحاً لاغتصاب حضارة الشعوب الأخرى، خاصةً الاندلسين الذين كان لهم دور كبير في كثير من الاكتشافات العلمية والأدبية والفنية، وكذلك اكتشاف العالم الجديد، وتذكر بعض المصادر وصول الاندلسين إلى ذلك العالم قبل كولمبوس بقرون.

أما حلفاية العراق فمن المعروف أنها مدينة صغيرة تقع في محافظة العمارة، أهلها يشتغلون بالزراعة والصيد وتربية المواشي. وتحتفظ هذه المدينة، كما هو الحال في مدن المناطق الجنوبية، بتقاليدها وعاداتها العربية والإسلامية وكذلك السومرية القديمة.

ولما جففت هذه المناطق من مياهها بفعل النظام السابق، تحدثت وسائل الإعلام العالمية عن دور هذه المناطق في نشأة الحضارة الإنسانية، وأتذكر يومها كانت مديرة المتحف الأسباني تتحدث في الراديو عن الحضارة السومرية فقالت إن حياة وتقاليد أهل الجنوب العراقي هي صورة منسوخة عن عادات وتقاليد الأقوام السومرية والبابلية القديمة والذي يريد دراسة تلك الحضارات القديمة فما عليه إلا أن يشد الرحال إلى المناطق الجنوبية من العراق.

إن المتأمل في ثقافة أهل الجنوب وحياتهم الاجتماعية يجد هناك عناصر مشتركة بينهم وبين ثقافة أهل سومر مثلاً: إن "الطرّادة"، كما يسميها أهل الجنوب، وهي مركب نهري يستخدم كوسيلة للنقل في الأهوار هي نفسها كانت عند السومرين، والبيت المبني من البردي والقصب خاصة "المضيف" لا زال هو البناء المعماري المفضل عند أهل الجنوب كما كان عند أهل سومر. أما الشيء الأكثر إثارة للاستغراب والذي يدل على أصالة أهل الجنوب فهو الملابس التي لا زال بعضهم يرتدونها وهي شبيهة بما كان يرتديها أهل سومر وبابل مثل العمامة والصاية أو الزبون.

وأما الحلفاية الثالثة وهي رواية للأستاذ والكاتب الأديب مالك المطلبي وهو صديق قديم وعزيز وكان رئيس تحرير "مجلتي" و"المزمار" وكنت يومذاك رساماً فيهما، ولم أطلع على هذه الرواية بسبب وجودي في الخارج والانفصال والانقطاع الذي حدث بين مثقفي الخارج والداخل بسبب النظام السابق. وقد ذكر لي أحد الأدباء بأن الرواية كانت من أروع ما كتبه مالك المطلبي وهي تمثل محاولة الكشف عن معنى الحياة الريفية من خلال التقاليد والعادات الموروثة والتي تضرب بعمق التاريخ، وتعكس تلك الحياة الاجتماعية بمعناها البسيط وغير المعقد، والعلاقات الإنسانية التي تبحث بكل وسيلة عن الوحدة والتآلف والتضامن بين الأفراد وعشائرهم، فالفلاح عالم بأرضه ومائه وسمائه وكذلك في حل مشاكل عشيرته، وهذه الصفات قد لا تجدها عند المثقف صاحب الشهادة العليا.

وعند زيارتي لبغداد التقيت بمجموعة من المثقفين العراقيين ومنهم المطلبي في مقهى الشابندر في شارع المتنبي، وقد أصبحت هذه المقهى اليوم ملتقى الأدباء والفنانين العراقيين، وهي تذكرني بمقهى في مدريد تسمى "خيخون" حيث كان يلتقي فيها أبرز أدباء أسبانيا مثل الشاعر رافائيل ألبرتي والشاعر والكاتب الروائي المعروف أنتونيو غالا وغيرهم. وقد وجدت المثقف العراقي لا زال حياً يكتب وكأنه يرفع شعار ذلك الكاتب الغربي "الكتابة كفاحي من أجل البقاء" رغم ما مر عليه من ظروف قاسية.

وقد لفتت نظري ظاهرة ثقافية غريبة في ذلك الشارع المعروف بتاريخه الثقافي القديم، وهي بمثابة معرض للكتاب، حيث إن كل جمعة يمتلئ هذا الشارع والشوارع المحيطة به ببائعي الكتب على مختلف أنواعها واتجاهاتها، من اليمين إلى اليسار ومن الشرق إلى الغرب. والواقع أن هذه ظاهرة صحية لم يشهدها تاريخ العراق كله، فهي تثلج القلوب وتسر النفوس وتبشر بمستقبل كريم. إذن الحلفاية أو الحلفاء هي جزء من هذا التراث الحضاري الإنساني العظيم، وإن إطلاق اسمها على أحد المدن الأندلسية سواء عن قصد أو صدفة أو غير ذلك هو في الواقع امتداد حضاري ثقافي طبيعي أنتجته الأمم القديمة ثم تناقلته الحضارات التي تعاقبت بعدها وانتشرت في كل بقاع الأرض. ■

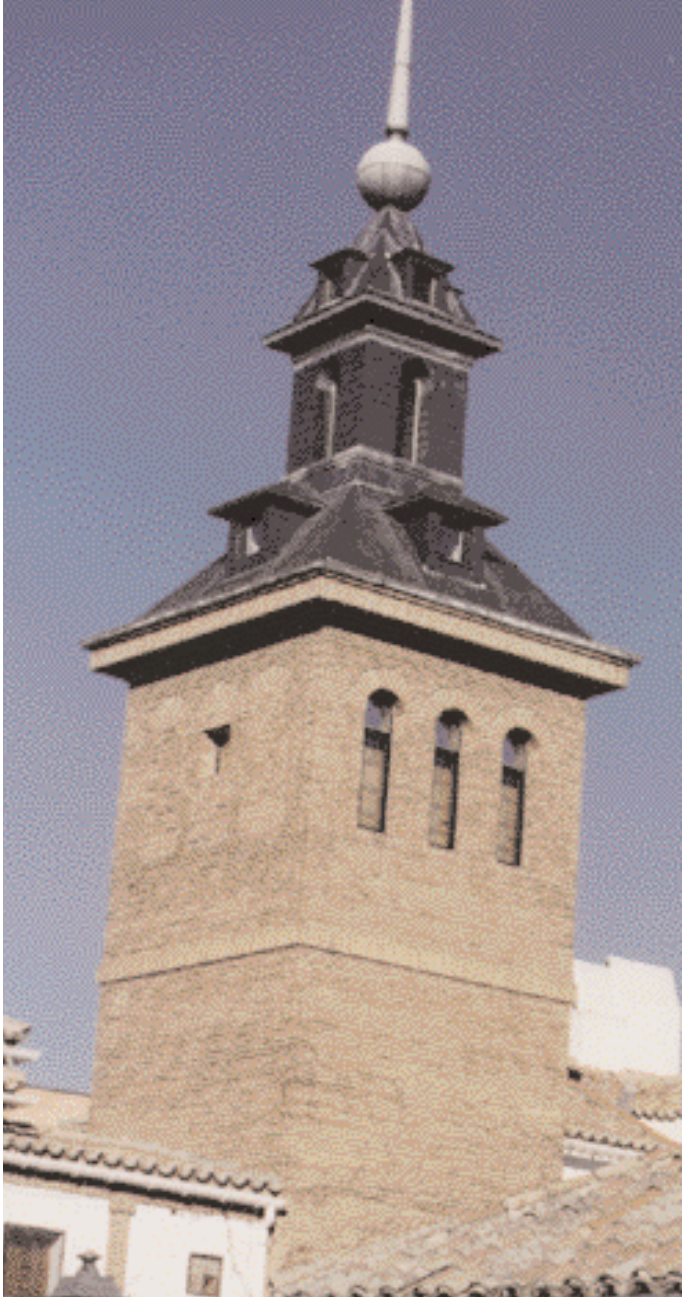

قرية بيابيثيوسا دي ودون التي قامت في محل الحلفاية.

The modern day village of Villaviciosa de Odon which replaced Al- Halfaya

بقايا الحلفاية التي تحتاج إلى تنقيبات.

Remains of Al-Halfaya which needs excavation.